قيود الحريات في أوقات الحرب

بقلم الدكتور محمود عزمي بك

كانت الحرب فيما مضى تدور بين الجيوش وحدها ، فأصبحت تدور اليوم بين جميع أفراد الأمم .

والحرب قيود والتزامات . فهذه الحريات العريضة الواسعة النطاق التي يعرفها الأفراد في وقت السلم عادة ويتشبثون بها ، تتعدم أو تكاد تتعدم في أوقات الحرب . ذلك أن هناك غرضا في الأفق يعدو حريات الفرد . بل إنه اذا كان الهدف الأسمى للجتمعات الديموقراطية هو إسعاد الفرد وتوفير أسباب العيش الرغد له والراحة بصنوفها ، فإن هذا الغرض يفنى في زمن الحرب ، ويحل محله هدف أبعد منه ، ينسى فيه الفرد وينسى إسعاده ورغده وراحته ، لأن الدولة كلها تكون في حاجة الى الجهود التي كانت تبذل من أجل الأفراد . وما دامت الدولة ، وهي التي توفر حريات الأفراد وتحميها وتضمنها وتدعمها بسلطانها ، قد تعرضت سلامتها هي نفسها للخطر ، فإن الحريات كلها تصبح في الميزان ، وليس غير الدولة كافلا لها جميعا .

الحرب ليست إنتناءة في تاريخ الأمم وإنما الحرب تاريخ مستقل بذاته وبمكوناته . وهو إن يكن يتصل بما سبقه ، إلا انه يستقل بمعالمه وسماته الأصلية فيه حتى ليكاد يقطع هذه الصلة بالماضي . وأظهر معالم الحرب هي قيود الحرب . ولكنها ليست هاهنا ككل القيود . فالقيد غل مكروه ، ولكنه عند ما يفرض من أجل الوطن شرف أيسر مافيه أنه قيد .

إن الحياة رخيصة لا قيمة لها إلا أن يكون لها سبب وجود ، وهذا السبب في وقت السلام هو حرية الفرد ، وهو في وقت الحرب سلامة الوطن ، وأعظم بسلامة الوطن من سبب ، وأهون بما تقتضيه من قيد !!

وفي تلك البلاد المحاربة في هذه المرة ، كما في كل مرة سبقتها ، فهم الناس وعرفوا أن الحرب سلسلة من القيود متلاحقة الحلقات . ولذلك فقد قبلوا ما تأتي به بنفس راضية ، لأنهم يعلمون أن هذه الرخص والحريات الفردية هينة ، بل تافهة إلى جانب رخصة الوطن الكبرى وبقائه في الوجود عزيزا كريما ، وإلى جانب حريته التي تمنح الحريات جميعا .

ألم نر إلى انجلترا كيف خولت للدولة — في جلسة برلمانية لم تدم أكثر من ساعتين اثنتين — أن تستولي على ما تضطرها واجبات الدفاع الى الاستيلاء عليه من أملاك الأفراد أو أملاك

الشركات والمؤسسات التى يكونونها . ولم يرتفع مع ذلك صوت واحد للاحتجاج على هذا الإجراء الخطير الشأن فى النظام الاجتماعى كله ؟

ألم نر إلى قيود هذه الحرب فى البلاد التى اصطلت بنيرانها كيف كبلت كل التصرفات وحدت من كل الحريات وتعلقت ثقيلة بأقدام الأفراد أينما ساروا فى مضارب المجتمع ؟ أسمعنا صوتا ارتفع يقول فى انجلترا مثلا إن حظ الأفراد من أنصبة الطعام التى قررتها الدولة لا يرضى ولا يكفى ؟

أسمعنا فى بلد كألمانيا — وقد أصبح الحرمان هناك قاعدة من قواعد الحياة اليومية — أن الناس لا يدركون الدوافع إلى إقلال أنصبة الطعام عندما رأت الدولة أنها فى حاجة إلى ذلك لتطعم من تظلهم بحمايتها ؟ ألم نر إلى العمال فى انجلترا ، وانجلترا هى من نعلم حرصها على الهناءات الديموقراطية جميعا ، وقد ارتضوا إلغاء عطلتهم الأسبوعية مرحبين بهذا الإلغاء من أجل بلادهم ، وقبلوا أن يزيدوا ساعات العمل إلى أضعافها من أجل بلادهم ، واستيسرت للسيدات عندهم أن ينزلن عن كل عزيز على نفوسهن ، وأن يهبطن إلى الحقل وإلى المصنع وإلى الميدان ؟ كل ذلك لأن البلاد فى حاجة إلى جهود أبنائها ، ولأن الناس فى تلك البلاد كلها يعرفون أن سلامة بلادهم تتطلب جميع أنواع التضحيات من أفرادها .

وإذا كانت الحرب قد اقتضت الناس فى الماضى أن يرتضوا القيود راغبين ، فإنها اليوم تفرض عليهم قيودا أثقل ولا بد أن يرتضوها راغبين كذلك . إن الأمم هى التى تحارب الآن ، ولم يعد ميدان القتال هو ميدان القتال ، إنما أضحى كل شبر فى أرض الوطن ميدان قتال ، وأضحى الجنود هم كل أفراد الأمة . هكذا رأينا وسمعنا وما زلنا نرى ونسمع .

أما فى مصر فإن الحرب لم يصل لهيبها إلينا بعد فى كل تاريخنا الحديث ، ولم تكون فكرة صحيحة عن واجباتها وقيودها وأحمالها وثقيلة ما هى هذه الواجبات والقيود والأحمال !

أننا لا نعرف من الحرب فى هذا الجيل إلا ما بقى فى نفوس الأكبرين منا من ذكريات الحرب الماضية . ولم نكن نحارب فى المرة السابقة ولكننا كنا نتاجر . فصورة الحرب كما بقيت فى نفوسنا هى مال ورخاء وحياة ، ولكن الحرب فى هذه المرة — إذا حدث أن أقبلت تزورنا — لن تكون كذلك . إنها ستكون إذن تضحيات والتزامات وقيودا لم نعرف عنها حتى الآن شيئا .

وماذا نعرف من الحرب — كموظفين مثلا — إلا أنها علاوة غلاء وعلاوة حرب فوق ما نحصل عليه من أجور ؟

وماذا نعرف من الحرب كمزارعين إلا أن نبيع محصولاتنا بأعلى الأسعار ، وإلا أن نتطلب الذهب من هذه الأمم التى تنفق دم شبانها قبل أن تنفق الذهب ؟

وماذا نعرف من الحرب — وهى ضيق وتضحية وإرهاق — إلا أمثال ما كشف لنا عنه هذا الإحصاء الأخير الذى أجرته وزارة التموين لتوزع على قاعدته بطاقات البترول فخرجنا منه وعدد سكان بلادنا هو ضعف عدد السكان ؟ذلك أننا لا نعرف البذل لا فى السلم ولا فى الحرب، بل تسيطر علينا فكرة الأخذ أينما يصح الأخذ أو لا يصح . أما الإعطاء ، أما التضحية ، فأفكار أحسبها قليلا ما تدخل فى حسابنا على العموم وأنا شديد الأسف لهذا الحسبان .

قيود الحرب يجب أن تتحد فى ذهن كل مواطن ، ويجب أن نروض انفسنا على قبولها إن كان لنا أن ندخل هذه الحرب كما يدخلها الكرماء ، وأن نعيش بعدها أو نموت فيها كما ينبغى لمن يقسطون فى كرامتهم أن يعيشوا أو يموتوا . فما هى هذه القيود ؟

إن الحرب تقتضينا فى هذا الحساب العاجل ثلاثة أنواع من القيود : قيود سياسية ، وقيود اقتصادية ، وقيود أخلاقية .

أما القيود السياسية فمقدمتها أن نتوجه بكل قوانا الى غاية واحدة هى سلامة الوطن ، وأن نبذل له ولهذه الغاية من أموالنا وأرواحنا ودمائنا ما يجب أن يبذل للوطن إذا هدد كيانه من مال ودم وروح ، وأن نجعل سلامته من سلامتنا بل أن نجعل هذه السلامة سببا لوجودنا ، فما استحق أن يوجد من يفرط فى سلامة وطنه . ينبغى أن نستهين بالمال ، بل بالجسد والروح ، عندما تقرع طبول الحرب تدعونا أن ندفع عن بلدنا ، وأن نهرع غير عزيزة علينا الحياة للذود عن كل ما هو كريم وجميل فى أعمار الرجال .

ينبغى أن نبذل للوطن من نفوسنا بأن نكبح جماح الشائعات التى تضر بأمنه وسلامته ، وأن نحجمها عن الذيوع بأن نقفل أفواهنا ، و بأن نحذر دعاة التقهقر والهزيمة بما يكفف نشاطهم الخبيث . ينبغى أن نطيع ما يصدره الحكم العسكرى من أوامر ، وأن نكره لأنفسنا أن نفعل ما ينهى عنه . ينبغى أن نذكر أن الوطن فوق كل اعتبار ، فلا شهوات تغرينا ، ولا عروض تستهوينا ولا نزوات تستخفنا ، ولا أهواء تخلب ألبابنا .

أما القيود الاقتصادية فكثيرة ولكنها لا تستعصى على الحصر ، فيجب أن يفكر كل منا فى زيادة إنتاجه قدر ما تتسع طاقته للانتاج ، وذلك فى كل ميدان ، ومهما يكن العمل الذى يقوم به الفرد . ويجب أن يقلل كل منا استهلاكه فلا يزيد فى حده الأعلى عما هو ضرورى ولازم ، وأن نستوثق من حكم عقولنا فى شهوات نفوسنا ، وأن نصدق السلطات فلا نكذب ولا نموه ولا نزور ولا نزيف . ويجب أن يعمد من يحترفون الاتجار منا إلى رعاية حق الوطن فيما يبيعون ، فلا يستغلوا حاجة مواطنيهم ، ولا يستخفهم الكسب الهين إلى الاستفادة من حوائج الناس . ويجب أن نتحمس جميعا بخلة الادخار ندفع بها مفاجآت المستقبل — والحرب كلها مفاجآت — ونستعين بما نقتصد على ما قد يعقب الحرب من سنين عجاف .

وأرجو أن نعلم جميعا أنه إذا كانت الحرب تحمّل الفرد تضحيات جمة، فإنها تحمّل الدولة تضحيات أكبر وخاصة من الناحية المالية . فإن الحرب رجال ، وهى أيضا معدات ، والمعدات تعنى المال . والدولة التى تهبّ للدفاع عن بلادها لا تملك أن تقف لتفكر طويلا فى وسائل الحصول على المال تفكيرا هادئا كما كانت تفعل فى وقت السلم ، فهى تريد المال فى التو، وهى لهذا تطلبه فى إلى الأفراد وعلى الأفراد أن يقدموه إليها غير متذمرين ولا متململين. هؤلاء عليهم ألا يضنوا عليها بما هى فى حاجة إليه، فهم فى الحقيقة، وعلى الأقل وقت الحرب ، الذين يحملون عبء الحصول على هـذا المال ، وربما أشركوا أولادهم معهم فى حمل هذا العبء. هذا أيضا واجب من واجبات الحرب يقع ثقله على عاتق الأفراد، إذ هو يتصل بقيود ضغط الحريات وبالتضييق على النفس للحصول على فائض تمنحه للدولة . وليست هـذه التضحية المالية أمرا هينا ، لأنها قد تتكرر وقد تتضاعف . وهذه انجلترا ، وهى ما نعلم من الثراء حكومة وشعبا — يرتفع فيها صوت حجة فى الاقتصاد كالعلامة كينس ليهيب بالناس حاكمين ومحكومين أن أعدوا أنفسكم منـذ الآن لا للتضحية بأبنائكم فقط ، ولكن للتضحية أيضا بثمن العيش الذى تأكلون ، وكلما تقدم الزمن بالحرب فأعدوا لها تضحيات أكبر من الناحية الاقتصادية إلى جانب النواحى الأخرى . ذلك أن الحرب حرمان بل الحرب جوع وصوم .

وأرجو أيضا أن يأخذ القراء عنى حقيقة وددت لو كانت بارزة متميزة فى أفهامنا جميعا . تلك أننا فى مصر نعيش لأنفسنا لا لأمتنا . فالفردية — ولا أحب أن يفهم أحد أنها خصلة ممقوتة فى أوقات السلم — عريقة الجذور فى تفكيرنا وفى سلوكنا ، وكل منا تعنيه مصلحته هو لا مصلحة الآخرين . فالفرد وما يهمه عن كثب بداية ، وبعد ذلك الطوفان . وربما كان هذا اللون من التفكير — بغير إسراف فيه — جديرا أن يؤخذ به وأن يوعظ به فى الأوقات العادية . أما فى أوقات الحرب ، فلا الفرد ، ولا مصلحته ، وإنما هذا البناء السامق الذى تتألف منـه الدولة وهذه الذرات الكريمة التى تتألف منها أرض الوطن ، هى التى يجب إن يكون لها السبق عندنا فى التفكير وفى التدبير . أجل ! إن الفرد موجود فى السلم منعدم فى الحرب ، وإن مصلحته تطفو فى الوقت العادى وترسب إلى القاع عند ما يحزب الأمر ويدعو داعى الوطن . وهذه هى قيود الحرب الأخلاقية : أن يعمل كل منا من أجل بلاده وسلامتها واستقلالها قبل أن يفكر فى نفسه ، أن يفكر فى المجموع لا فى وحدة من وحدات هذا المجموع، فنحن لا ينبغى أن يكون لنا وجود مستقل بأفرادنا بل يجب أن يكون وجودنا بوطننا ، وبأمتنا ، وبمجموعنا . ذلك هو تفكير الحرب أرجو أن يتدبره المصريون .

محمود عزمى